السعادة والقدر من منظور فلسفي
" في طبيعة الأشياء" للوكريتيوس

د. محمد جمال الكيلانى

كلية الآداب – جامعة قناة السويس

Abstract

Happiness and Fate Challenges from a Philosophical Perspective towards the Origin of Things According to Lucretius

Happiness is considered to be a human objective any man tries hard to attain in order to feel happy in his life. The concept of happiness has always been the concern of philosophers beginning from Egyptian wise men to Chinese and Indian philosophers. As for Greek philosophers Pythagoras, Plato, and Aristotle have discussed the issue of happiness; however, they have not approached fate as a separate entity. This is probably due to the fact that fate goddess had special stature and authority undoubted by the public at that time.

Concerning the main focus of our present study, it is related to Lucretius (94 BC – 55 BC) who is one of Epicurus's followers and who is responsible for the spread of Epicurus's philosophy in the Roman culture throughout the first century BC which is done through his poem "On the Origin of Things". In his poem, Lucretius tries to investigate man's happiness achieved by dismissing the feelings of fear of death and gods; he assures the idea that the strength of religion is derived from two main sources: first, man's wonder and fear of some natural phenomena, especially those destructive by nature such as tempests, earthquakes, epidemics, etc. or second, man's fear of unusual natural phenomena like eclipses, volcanoes, etc. which may lead to man's feeling of horror and unhappiness and his aptitude to accept superstitious interpretations propagated by clergy men.

The present study arouses the following questions:

1- Why did Lucretius relate human happiness to fate rejection in spite of the fact that the Romans by nature insisted on fate in all human, social, and political fields of their life?

2- Was Lucretius invitation to reject fate challenges derived from his rejection of religion as a whole, though he opened his poem by reaching to the goddess vinos? Or because of philosophical reasons like his criticism to teleological philosophers? Or political reasons due to the disagreement between the public and the Republican in Rome?

In order to investigate the above mentioned issues in the present study, the researcher adopts the comparative analytical historical method. The study includes the following points:

First: Non-existence of fate for Lucretius.

Second: Mortality of the mind for Lucretius.

Third: Mortality of the spirit and criticism to the idea of reincarnation.

Fourth: Inevitability of the world's mortality and denial of immortality.

Fifth: Man's free will away from fate.

Sixth: The concept of happy life for Democritus, Epicurus, and Lucretius.

تمهيد :

إن السعادة مطلب إنساني يسعى كل إنسان إلى تحصيلها وبلوغ كمالها حتى يهنئ بحياته ،حقيقة لقد شغلت السعادة اهتمام الفلاسفة بداية من حكماء مصر إلى حكماء الهند والصين، أما اليونان فقد عُني جل الطبيعيين وفيثاغورث وأفلاطون وأرسطو قد ناقشوا قضية السعادة غير أنهم لم يتناولوا القدر كحقيقة مستقلة أو مسألة مطروحة للتحاور، ويرجع ذلك إلى أن ربات القدر كان لهن مكانة أو سلطة يأبى العقل الجمعي التشكيك فيها أو نقضها ، وهي في الفكر اليوناني بوجه عام من الأمور المسلم بوجودها.

وفي العصر الهللينستي لا نكاد نلمح أهم من مدرستين فلسفيتين قد تعاملتا مع السعادة والقدر:

الأولى المدرسة الرواقية التي أكدت على العنصر الإلهي في العالم وعقل الإنسان، ومن ثم ناشدت الطبائع الدينية بحث الوعي بإطلاق السيطرة الإلهية على العالم وطرد الأوهام والخرافات من العقل البشري بضمان وجود الآلهة التي هي سبب سعادته في الدنيا ، وجعلوا الإله أو زيوس هو القدر؛ حيث ربطهم الدائم بين السعادة والقدر، مثل

قول إبيكتيتوس(٥٠-١٣٨ م) : "إذا قدر لي أن أموت فلن أجد في الإقدام على الموت ما يدعو إلى التأوه والتألم، وإذا قدر لي أن أزج إلى السجن فلن أذهب إليه باكيًا منتحبًا، وإذا قدر لي أن أعاني مرارة النفي فلن أذهب إلى منفاي مكتئبًا متخاذلًا، وإذا طلب إلي طاغية أن أفشي سرًا وهددني بأن يقيدني بالأصفاد، قلت له إنك تقيد ساقي ولا تملك أن تمس إرادتي بسوء، وإذا أرسلني إلى السجن أمكنك أن تتحكم في جسدي دون أن تمتد قدرتك إلى نفسي، وإذا أنذرتني بفصل رأسي عن جسدي قلت لك ساخرًا: أنا الإنسان الوحيد الذي يستحيل قطع رأسه".

المدرسة الثانية هي المدرسة الإبيقورية التي أكدت على مفهوم الضرورة العلمية وأن الأشياء لا تحدث مصادفة ، ولكنها نتاج مجموعة من الأسباب المادية دون تدخل الآلهة أو القدر في سير الأحداث أو حتى سعادة الإنسان أو تعاسته؛ وذلك لأنها تأسست على المادية الذرية عند ديموقريطوس، فكانت أكثر ميلاً إلى النظرة العلمية للواقع، ومن ثم دحضها لمقتضيات الدين، والخوف من التدخل التعسفي للآلهة في الحياة، وأن كل ما في الوجود هو نتيجة لأسباب طبيعية، دون تدخل القدر.

وعن شخصية بحثنا فهو تيتوس لوكريتيوس كاروس(٩٤ق.م- ٥٥ق.م) أحد أتباع أبيقور وباعث فلسفته في الثقافة الرومانية أثناء القرن الأول قبل الميلاد من خلال قصيدته "في طبيعة الأشياء"

لقد حاول لوكريتيوس في قصيدته البحث عن سعادة الإنسان بطرد الخوف من الموت والآلهة؛ حيث أكد على أن قوة الدين تأتى من مصدرين رئيسيين: الأول تعجب وخوف الإنسان من حدوث بعض الظواهر الطبيعية، ولا سيما ذات الطابع التدميري مثل (العواصف- الزلازل- تفشى الأمراض) أو الظواهر الطبيعية غير الاعتيادية مثل (الكسوف – الخسوف- الانفجارات البركانية) وما تسببه من رعب وخوف للإنسان يصل إلى حد تعاسته وعدم شعوره بالراحة والسعادة والطمأنينة، وما يترتب عليها من قبوله للخرافات التي يبثها رجال الدين حول هذه الظواهر التي قدرتها الآلهة

كعقاب للإنسان؛ أما المصدر الثاني: فيتمثل في عقيدة خلود النفس والحياة الآخرة، والتي غالبًا ما تملأ النفوس بالخوف؛ تحول دون قدرتهم على الشعور بالسعادة في حياتهم.

انطلق لوكريتيوس من الشك الرافض والمُنكر للموروثات الدينية ، مؤكداً على ضرورة استئصال النظرة الدينية بأكملها، والإيمان بالقدر من عقول البشر كي يتمكنوا من العيش حياة "جديرة بالآلهة".

فهو القائل بأن الطبيعة قد حررت الإنسان من طغيان الآلهة وقدرها المزعوم بالحتمية والضرورة والخوف من الموت، بفهم الطبيعة وقوانينها سيبلغ الإنسان حريته، بل أعلى درجات المتعة في حياته الحرة.

ويفرض البحث علينا التساؤلات الآتية:

١- لماذا ربط لوكريتيوس بين السعادة البشرية ورفض القدر، على الرغم من أن الرومان بطبعهم تمسكوا بالقدر في كل شيء في حياتهم الإنسانية والاجتماعية والسياسية؟

٢- هل كانت دعوة لوكريتيوس لرفض القدر وتحدياته نابعة من رفضه للدين ككل، على الرغم من أنه افتتح قصيدته بالابتهال إلى الربة فينوس؟ أو لأسباب فلسفية مثل نقده للغائيين من الفلاسفة ؟ أو لأسباب سياسية قد تكون الخلاف بين الحزب الشعبي والجمهوريين في روما؟

٣- ما هي الآليات والسبل التي اعتمد عليها لوكريتيوس لدحض القدر، وإنقاذ الرومان واستقرارهم؟

٤- لماذا انتقد لوكريتيوس القائلين بخلود الروح، وما علاقته بالسعادة وتحديه للقدر؟

أما عن المنهج المستخدم في هذا البحث فهو المنهج التاريخي التحليلي المقارن.

ويتناول البحث بالدراسة العناصر الآتية:

أولًا: عدمية القدر عند لوكريتيوس. ثانيًا: فناء العقل وموته عند لوكريتيوس.

ثالثًا: فناء الروح ونقد القائلين بالتناسخ. رابعًا: حتمية فناء العالم وإنكار الخلود.

خامسًا: حرية الإرادة الإنسانية وانتزاعها من القدر.

سادسًا: الحياة السعيدة عند كل من ديموقريطوس وأبيقور ولوكريتيوس .

أولًا: عدمية القدر عند لوكريتيوس

القدر " Ειμαρμενης " اختلط معناه عند اليونان والرومان بمفهوم الضرورة ، فنجد إنكسيماندروس أحد الطبيعيين الأوائل يحدد مناطق محددة للعناصر الطبيعية الأربعة خوفًا من جزاء وعقاب القدر أو الضرورة لقوله: " إن العناصر الأربعة تحتل مناطق معينة يجب ألا تتجاوزها، وإلا قضي عليها بدفع الجزاء عن كل تجاوز بحكم الضرورة أو القدر."[١] هذا بالإضافة إلى أن ربات القدر (كلوتو- لاخيستيس- أتروبوس) عند اليونان تعد كائنات يخضع لها زيوس نفسه، وربما كانت مصدرًا من المصادر التي استمد منها العلم اليوناني اعتقاده بقوانين الطبيعة[٢].

ولا شك من إيمان الرومان بالقدر وتسليمهم بتدخله في شئون حياتهم بل وتحديدها، فنجد العديد من الآلهة والأساطير المتعلقة بهم، حيث كانت تبنى المدن الرومانية للإله الراعي لها المعابد ويستحق الطقوس، وأن كثيراً من الآلهة الرومانية كانت مرتبطة بشكل وثيق مع الطوائف بدلاً من الأساطير فكانا روموليوس وريموس أبناء مارس (إله الحرب) وريا.[٣]

---

[١] – برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية.ك١. الفلسفة القديمة. ترجمة د/ زكى نجيب محمود، مراجعة د/ أحمد أمين. لجنة التأليف والترجمة والنشر. وزارة الثقافة. القاهرة. ١٩٦٧. ص٣٦.

[٢] – W.Jaeger. The theology of the Early Greek philosophers. Oxford. 1968.p.67.

[٣] – أمين سلامة. الأساطير اليونانية والرومانية.دار الفكر العربي.القاهرة.١٩٨٨.ص٩.

اعتمد الرومان الكثير من آلهة اليونانيين وقصصهم وقاموا بإعادة تسمية عدد منهم مثل أفروديتي (إلهة الحب والجمال) أصبحت الربة فينوس (التي استفتح لوكريتيوس قصيدته بالابتهال لها) وأرتميس (إلهة الصيد) أصبحت ديانا، وأريس (إله الحرب) عند اليونان أصبح مارس الذي أمن القادة الرومان بالتضحية له قبل كل معركة.

هذا بالإضافة إلى اهتمام الأباطرة بالدين والقدر والآلهة، مثل الإمبراطور أغسطس الذى حاول تأسيس جمهورية للدين القديم وتقديس الآلهة.[٤]

هذه الرؤية الإيمانية لم توجد على الإطلاق في المدرسة الإبيقورية وخاصة عند لوكريتيوس، لأنهم اعتمدوا على تفسير العالم من خلال القوى المادية والقوانين الطبيعية، رافضين تدخل الآلهة في أي شيء، وذلك لأن الإنسان هو الآخر مكون من الذرات، فساوى لوكريتيوس بين القدر والعدم.

فقد أنكر الإبيقوريون العناية الإلهية معتبرين إياها وهم من الأوهام متسائلين أين هذه العناية الإلهية في عالم حظ الشر فيه أكبر آلاف المرات من حظ الخير، ومصير الخير أسوأ بكثير جداً من مصير الشر؟[٥]

يجب أن نلاحظ أن لوكريتيوس يؤمن بالآلهة، ومع ذلك فإن هؤلاء الآلهة يعيشون في الرضا التام، لا يهتمون بالبشر ولا يلعبون أي دور على الإطلاق فيما يدور في الكون المادي. ما الذي يمكن أن يحفزهم على القيام بذلك ؟ لماذا حتى عنائهم؟ يجب على

---

[٤] – ميرسيا إلياد. تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية.ج٢.ترجمة عبد الهادى عباس.دار دمشق للطباعة.سوريا. ١٩٨٧.ص١٥٨.

[٥] – د/ عبد الرحمن بدوى: خريف الفكر اليوناني . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة . ١٩٥٩.ص ص ٥٧–٥٨.

البشر التفكير في كمال الآلهة، ولكن ليس لدينا عمل يستحضرهم من أجل شرح الأحداث الطبيعية.[٦]

وظل يعتقد لوكريتيوس أن الإله يجب أن يكون شيئًا يرفع الفرد إلى مستوى أعلى، وليس مصدرًا للخوف وتهديده بالقدر.[٧]

ويقول لوكريتيوس:

" عندما دبت حياة البشر على الأرض ، فقد عانت من وطأة المعتقدات الخاطئة
التي كانت تطل برأسها من أنحاء السماء
وتزعج البشر بمظهرها المخيف."[٨]

وهو القائل أيضًا:

" الشيء الذي يُخلق بالحكمة القديمة للآلهة من أجل الجنس البشري وبغرض الخلود،
ليس من المسموح له أن يخرَ يوماً من قواعده بأي قوة
أو يتأثر بالكلمات أو ينقلب رأساً على عقب ؛
إنه لمن الحماقة : اختلاق وإضافة أباطيل أخرى
من هذا القبيل.... فأي نفع يمكن أن يحققه
شعورنا بالامتنان من الآلهة الخالدة والمباركة ،
للدرجة التي تجعلها تحاول إنجاز أي شيء من أجلنا؟ ".[٩]

---

٦ – Peter Aronoff, LUCRETIUS AND THE FEARS OF DEATH, Cornell University, 1997.p.33.

٧ – Ibid,p.37 .

٨ – لوكريتيوس .فى طبيعة الأشياء. ترجمة د على عبد التواب على ، د صلاح رمضان ، د سيد أحمد صادق.مراجعة وتقديم د عبد المعطى شعراوى .المركز القومى للترجمة. القاهرة. ٢٠١٨. ك١. ب ٦٥. ص٩٩.

٩ – نفس المصدر: ك٥. ب١٦٠: ب ١٦٦– ص ٤١٧.

وهنا يرفض لوكريتيوس القدر أو ما يسمى بتعديل القدر من خلال بعض الصلوات والعبادات والطقوس الإلهية بل وتدخل رجال الدين في الوساطة لتعديل قدر الإنسان أو تعديل قدر جماعة معينة أو تعديل قدر مدينتهم ، معتبرًا كل هذه الأساليب أباطيل وخرافات تُنسب للآلهة التي لا تهتم بالبشر ولا تريد إزعاجهم كما تفضل لنفسها.

ويضيف لوكريتيوس اعتراضه على خلق الآلهة للعالم من أجل الإنسان أو تدخلهم في شئونه وعنايتهم به أو تهديده بالقدر متسائلًا:

هل لنا أن نعتقد أن الحياة كانت غارقة في الظلام والحزن

إلى أن خرج للنور أول موجود من الموجودات؟

علاوة على ذلك من أين غُرس لدى الآلهة

أول نموذج لخلق الموجودات، وصورة البشر الأول ذاتها،

حيث يعرفون ويرون بعقولهم ما يرغبون في خلقه؟

وبأي طريقة عرفوا قوة الذرات؟

وكيف عرفوا التأثير المحتمل لاتحاد الذرات فيما بينها على تنوعه،

إذا لم تقدم الطبيعة ذاتها نموذجاً لعملية الخلق ؟

فإنني – على أية حال – أجرؤ على أن أؤكد أن

العالم لم تعده الآلهة من أجلنا قط،

وإنه لخطأ فادح أن يقفوا في طريقنا،

ليس بمقدورك أن تعتقد أن

هناك مساكن مقدسة للآلهة في أي جزء من أجزاء العالم؛

لأن طبيعة الآلهة تتسم بالرقة، ولا تدركها

حواسنا، ومن ثم من الصعب أن يدركها العقل.....

وحيث إن طبيعة الآلهة تستعصى على اللمس أو المسك بالأيدي،

وينبغي لها ألا تلمس شيئاً من الأشياء التي بمقدورنا نحن لمسها،

على هذا فإن الشيء الذى يستحيل لمسه لا يمكنه هو أيضاً أن يلمس شيئاً،
وهكذا فإن مساكن الآلهة أيضاً ينبغي أن تكون مختلفة
عن مساكننا، فهي رقيقة مثل أجسادها."[١٠]

ويقول لوكريتيوس:

" اعتقد البشر أن الآلهة تتفوق عليهم في السعادة،
وذلك لأن الخوف من الموت لا يزعج أياً منها،
وهكذا فإن القوى الخفية تسحق الجنس البشري،
وتبدو أنها تطأ عصا السلطة النبيلة
والبلطة القاسية وتجعلهما محل سخرية لها.
فلماذا نتعجب إذا احتقرت أجيال البشر نفسها،
ونسبت إلى الآلهة القوى الهائلة والعجيبة
في الكون، وأنها تتحكم في كل شيء."

وعلى أية حال فقد نفى لوكريتيوس تدخل القدر في أي شيء في حياة الإنسان حتى في الزواج والقدرة الجنسية وتحديد نوع الذرية حيث يقول:

" إن أولئك العقماء يرهقون المشيئة الإلهية والأقدار بظنهم
أن الآلهة هي التي تجعل زوجاتهم حبالى بمنيهم الغزير،
حيث ينثرون في أسى الدم الكثير على مذابح الآلهة،
ويكدسون قمم المذابح بالهدايا.
إن الآلهة لا تعوق رجلاً عن قدرته على الإنجاب." [١١]

---

[١٠] – نفس المصدر: ك٥– ب ١٨٠– ب ١٩٧ ص٤١٩:٤١٦ .

[١١] – نفس المصدر: ك٥. ترجمة د على عبد التواب على. ب١١٨٠–١٢٤٠ ص٤٧٩.ص٤٨٣. ك٤.ب ١٢٣٥

لقد أراد لوكريتيوس أن يدفع عنا الخوف من العدم عن طريق التأمل في الموت والفناء الخالد.[١٢]

ثانيًا: فناء العقل وموته

عالج لوكريتيوس القضايا المتعلقة بالقدر سواء من حيث نفيه لما يسمى بالقدر أو ما يتعلق به من عناية أو تدخل الآلهة في شئون الإنسان ، انطلاقاً منه لمعالجة ظلمة العقل البشري الذى يفنى بفناء جسده وتقبله لخرافة القدر وضلالاته وتأثيرها على سعادته. حيث يقول لوكريتيوس:

" إن ظلمة العقل وخوفه هذا ليس بالإمكان
تبديدهما بأشعة الشمس، أو بضوء النهار الساطع،
بل بتأمل الطبيعة وفهم قوانينها.
في البداية أقول إن العقل الذى غالباً ما نطلق عليه الإدراك،
والذي فيه يتركز الفهم وإدارة شئون الحياة،
يمثل جزءًا من الإنسان، ليس أقل من اليدين أو القدمين
أو العينين، فجميعها تمثل أجزاء من الكائن الحي كله."[١٣]

وعليه فقد أكد على أن العقل مكون هو الآخر من ذرات مثل الجسد لقوله:

" إن طبيعة العقل قد ثبت أنها قادرة على الحركة على نحو فائق،
فلابد أنها تتكون من جسيمات بالغة الصغر والخفة والاستدارة.
إن مادة العقل ثلاثية الطبيعة؛
إلا أن هذه العناصر الثلاثة (الريح– الحرارة– الهواء) مجتمعة ليست كافية لتفعيل قدرات الحواس،
حيث إن العقل لا يقبل أي عنصر منها على أنه قادر على بث

---

[١٢] – آميل برهييه.تاريخ الفلسفة.ج٢. الفلسفة الهللينستية والرومانية.ترجمة د جورج طرابيشى. دار الطليعة للطباعة والنشر.بيروت. ١٩٨٨. ص ١٩١.

[١٣] – لوكريتيوس .فى طبيعة الأشياء. ك٣.ب٩٥.ص ٢٥٠.

الحركات الحسية أو خلق الأفكار التي تدور في خلد العقل ذاته.
ثمة عنصر رابع ينبغي إضافته إلى هذه العناصر
الثلاثة، وهو لا يحمل اسمًا على الإطلاق؛
ولا يوجد شيء أكثر قدرة على الحركة أو أكثر دقة من ذلك العنصر،
ولا يوجد عنصر مكون من ذرات أصغر وأخف منه؛
وهو العنصر الذى يبادر أولاً في بث الحركات الحسية في الأطراف،
ولأنه يتألف من ذرات دقيقة فهو أول من يُثار،
ثم تتلقى منه الحركة كلُ من الحرارة وقوة الريح
غير المرئيتين، ومن بعدهما الهواء؛ بعد ذلك تتمكن كل الأعضاء
من الحركة؛ فالدماء تفور، وتدب الأحاسيس في كل أنحاء الجسد،
وفي النهاية يصل الشعور إلى العظام والنخاع،
سواء كانت مشاعر سعادة أم أي مشاعر متناقضة." [١٤]

أراد لوكريتيوس من النص السابق البرهنة على مادية العقل بل والتأكيد على أن العقل شيء مادي حسي مرتبط بالجسم ارتباط وثيق في صحته ومرضه، في سعادته وشقائه، في موته وحياته. ولم تجد به أفكار لم تخضع للحس، بمعنى أن الآلهة وقدرها لم يوجدا في العقل إلا عن طريق الظن والوهم ، وأنها ضرب من الخرافة تجعل العقل في حالة من التناقض بين ماديته المحضة وأوهام ليس لها وجود مادي.
ويختلف لوكريتيوس هنا عن رؤية الرواقيين للعقل، الذى هو نتاج للتطور، من حيث إنه ينمو بالتدريج خارجاً عن الإدراكات الحسية.[١٥]علماً بأن الرواقيين أكدوا على مادية كل من النفس والعقل والإله ذاته.

---

[١٤] – نفس المصدر: ك٣.ب ٢٠٠:ب٢٥٠ صص ٢٥٧–٢٦٠.

[١٥] – فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة.م١ اليونان وروما. ترجمةد/ إمام عبد الفتاح إمام. المشروع القومى للترجمة. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة٢٠٠٢.ص٥١٧.

ثم انتقد لوكريتيوس قول الرواقيون الذين يروا أن العقل ليس له مكان محدد في الجسد بل هو سمة أساسية للجسد حيث يقول:

" يعتقد بعض الفلاسفة أن مدارك العقل لا توجد في موضع بعينه،
لكنها بحق بمثابة سمة أساسية للجسد،
يُطلق عليها الإغريق" التناغم" التي تمكننا من العيش
مزودين بالقدرات الذهنية، وذلك على الرغم من أن الإدراك ليس موجودًا
في أي جزء منا؛ مثلما يُطلق غالباً على صحة الجسد أنها جيدة،
فإن هذه العافية ليست جزءاً من أجزاء الشخص الذى يتمتع بالصحة.
هكذا فإنهم لا يضعون مدارك العقل في جزء بعينه من
الجسد، وبذلك فإنهم يبدون لي بأنهم قد شردوا بعيدًا جدًا.
لأن الجسد الذى نراه سليمًا، غالباً ما يكون سقيماً في أحد جوانبه،
بينما نحن مع ذلك نسعد بالجانب الآخر الخفي بداخلنا؛
علاوة على ذلك عندما تستسلم أعضاء الجسد للنوم الهادئ
ويستلقى الجسد متمدداً بلا إحساس مثقلاً بالنعاس،
فإن شيئًا ما بداخلنا حينها يختلج
بطرق مختلفة، ويحتوى على كل نزعات
الفرح، وكل هواجس الفؤاد الفارغة.....

والآن أؤكد أن العقل والروح مرتبطان ببعضهما (كلاهما أعضاء جسدية مادية)
وأنهما يشكلان فيما بينهما طبيعة واحدة ومادة واحدة،
إلا ما نطلق عليه الرأس (العقل المفكر) التي تتحكم في الجسد كله
هي محل الفهم الذى نسميه نحن العقل والإدراك،
ومكانها المنطقة الواقعة في منتصف الصدر.

لأن هنا (أي في منطقة الصدر) يختلج الفزع والخوف، وفي محيط هذا الموضع

توجد مشاعر الفرح، وعلى ذلك فإنه هنا يوجد الإدراك والعقل.
وينتشر الجزء المتبقي من الروح في أنحاء الجسد كله؛
حيث يمتثل للعقل ويتحرك بناءً على إرادته وتوجيهاته.
وهذا العقل وحده هو الذى يملك التفكير بذاته ، ويجلب السعادة لنفسه،
عندما لا يؤثر فى الروح أو الجسد شيء غيره."[١٦]

وقوله : " فهكذا يعاني العقل أحياناً من الألم وحده،
أو يقفز من الفرحة وحده، بينما الجزء الباقي من الروح
الموجود في الأطراف وباقي الأعضاء لا يعتريه أي إحساس جديد.
ولكن عندما يضطرب العقل برعب زائد عن الحد،
فإننا نرى أن الروح المتغلغلة بكاملها في شتى أعضاء الجسم تشاركه الخوف؛
خلاصة القول فإننا كثيراً ما نرى الناس يُغشى عليهم من الذعر
الذى أصاب عقولهم؛ وهكذا يمكن لأي إنسان أن يدرك بسهولة
أن طبيعة العقل والروح طبيعة مادية؛
وأن العقل يقاسم الجسد معاناته،
كما أنه يشارك الجسد في أحاسيسنا.
لو أن حربة اخترقت الجسد بقوتها الرهيبة وأصابت
العظام وأوتار العضلات ولم تقض على حياة الإنسان،
فإن الجسد يصيبه الوهن بعد ذلك ويسقط على الأرض،
وعلى الأرض يصاب العقل بالدوار،
وتنتابه أحيانًا رغبة متذبذبة في النهوض.
وعلى ذلك فإن طبيعة العقل لابد أن تكون مادية،

[١٦] – لوكريتيوس .فى طبيعة الأشياء. ك٣.ب ٩٧– ب١٤٥.ص ٢٥٠–٢٥٤.

حيث إنها تتأثر بالأسلحة المادية وطعناتها.[١٧]

لم يفرق لوكريتيوس بين العقل والروح فكلاهما يمثل الروح الكاملة:

" أين يمكن للروح والعقل أن يوجدا وينموا بمعزل عن بعضهما؟
علينا أن ننكر أن العقل يمكنه الوجود خارج الجسد البشري،
كأن يوجد في الكتل الطينية العفنة بالأرض أو في لهب الشمس
أو في الماء أو في أقطار الأثير العالية.
وعلى ذلك فإنه من الثابت ألا تحظى تلك الأشياء بمشاعر إلهية،
حيث إنها ليس بمقدورها أن تدب فيها الحياة." [١٨]

هاجم لوكريتيوس انطلاقًا من ماديته وحتميته الطبيعية القائلين بمفارقة العقل أو النفس للجسد، على اعتبار أن العقل والنفس من وجهة نظره تعبر عن الروح الكاملة للإنسان ذات الجسد الواحد والروح الكاملة الواحدة ، مؤكداً على أن العقل يولد مع الجسد وينموا معاً ويفنى معاً فالعقل يموت بموت الجسد.

وجاء دليله على ذلك بقوله:

" إذ مثلما تترنح الغلمان في مشيها لرقة
بنيانهم وضعفه، هكذا فإن عقولهم بالمثل
تتسم بضعف التمييز؛ ثم عندما يبلغون في
السن عنفوان الشباب، فإن إدراكهم وقدراتهم
العقلية أيضاً تزداد وتصير أكبر؛
وبعد ذلك عندما يصاب الجسد بالوهن بفعل القوى الهائلة
للزمن، وتخور قوى أعضاء الجسد بعد أن تصيبها البلادة،
يتوقف الإدراك ويتلعثم اللسان ويتداعى العقل،

---

[١٧] – نفس المصدر: ك٣.ب١٤٨– ١٧٥.ص ص٢٥٤–٢٥٥.

[١٨] – لوكريتيوس .فى طبيعة الأشياء. ك٥. ب ١٤٠–١٤٥. ص ص ٤١٥–٤١٦.

وتزوى كل الأعضاء وتتوقف عن العمل في الوقت ذاته..
وعلى هذا فإنه يعقب ذلك أن كل طبيعة الروح أيضًا
تتحلل كالدخان، وتتطاير وسط تيارات الهواء العالية،
حيث إنها قد وُلدت مع الجسد ونمت معه،
وكلاهما يضعف بعد أن قهره الزمن.
أن كان الجسد ذاته
عرضة للأمراض الفتاكة وللآلام المبرحة،
فكذلك فإن العقل عرضة للهموم الثقيلة وللحزن والخوف؛
وعلى ذلك فإن العقل يشارك الجسد والروح في الموت.
علاوة على ذلك؛ فإنه عند إصابة البدن بالأسقام فإن العقل
يهيم شاردًا؛ لأنه يفقد قواه، ويهزي بكلمات غير مفهومة،
وأحيانًا يُصاب بغيبوبة ثقيلة فيغط في سبات
عميق لا نهاية له بعينين مغمضتين ورأس منكسة،
وهكذا لا يتمكن من سماع أصوات من حوله، ولا التعرف على
ملامح هؤلاء الذين يقفون بجواره ويدعونه للعودة إلى الحياة،
إن عدوى المرض تتغلغل إلى داخله؛
لأن الألم والمرض هما صناع الموت."[١٩]

ثالثًا: فناء الروح ونقد القائلين بالتناسخ

انطلاقًا من حتمية الفناء عند لوكريتيوس وضرورة إيمان الإنسان بعدم تدخل الآلهة وقدرها في شئون الإنسان، بل وفناء كل من العقل والروح اللذان يمثلان الروح الكاملة عند لوكريتيوس في مقابل الجسد الفاني، بالطبع أراد لوكريتيوس البرهنة على أن

[١٩] – نفس المصدر: ك٣.ب ٤٤٥–٤٧٤. ص ص ٢٧٢–٢٧٣.

القائلين بخلود الروح وتناسخها يثبتون افتقار البشر للتفكير خاصة في اللحظة التي تترك الروح فيها جسدها، لكي تحل في جسد آخر، وفى لحظة حلولها في جسد آخر فينبغي ألا تتناغم معه بالضرورة لأنه غريب عنها ، فتخرج منه وهكذا إلى ما لانهاية له من الأجسام التي لا تتفق معها... إذ ينبغي أن تفنى الروح بفناء جسدها.

حيث يقول لوكريتيوس:

" إن مادة الروح تبدو أن لها يوم ميلاد
خاص ، كما أنها ليست معفاة من الموت.
علاوة على ذلك، هل تبقى ذرات الروح في الجسد
الميت أم لا؟ لو أن بعضها يبقى ويظل موجودًا بالجسد
لأصبح من المستحيل تماماً الاعتقاد في خلودها،
حيث إنها ترحل بعد تضاؤلها نظراً لفقدها بعض أجزائها.
لكن لو أنها لاذت بالفرار بكل أجزائها كاملة
حيث إنها لم تترك في الجسد أي ذرة من ذراتها،
فمن أين للجثث أن تبعث الديدان من اللحم الذي أصابه
العفن بالفعل؟ ومن أين يأتي كل هذا الحشد الكبير من الكائنات الحية،
التي لا عظام لها ولا دماء بها التي تسري داخل الأعضاء المنتفخة؟
هل فعلاً تتعقب الأرواح بعض ذرات
الديدان وتتخذ منها مأوى لها،
أم إنها تتسلل إلى أجساد قد أُعدت سابقًا؟ لكن لا توجد إجابة
أيضاً للسؤال التالي: لماذا على الأرواح أن تصنع لنفسها أبدانًا؟
ولماذا عليها أن تواجه تلك المتاعب؛ فهي عندما تكون دون جسد
فإنها تُحلق بعيداً فلا تتعرض لمرض أو برد أو جوع؟
ولأن الجسد أكثر عرضة لهذه المتاعب، فإن الروح تعاني

من الكثير من المتاعب لارتباطها بالجسد. على أي حال هب
أن هذه الأرواح تصنع كما تشاء لنفسها أبدانًا كي تسكنها
لكن كيف لها ذلك؟ وعلى ذلك فإن الأرواح لا تصنع أجساداً وأعضاء.
كما أنه ليس من المحتمل أن تتسلل الأرواح داخل
أجساد معدة لها سابقا؛ لأنها لن تكون قادرة على الاتحاد على نحو
وثيق مع تلك الأجساد ، ولن ينشأ بينهما تناغم في الأحاسيس."[٢٠]

ويستطرد قائلًا:

" لو أن الروح كانت خالدة واعتادت أن تنتقل من جسد
لآخر، لكانت الكائنات الحية ستظهر طباعاً مختلطة.
فالكلب من السلالة الشرسة يلوذ بالفرار
أمام العجل ذي القرون، ويرتعد الصقر أثناء
تحليقه في السماء عند قدوم اليمامة؛
وسيفتقر البشر للتفكير، وستحظى فصائل الوحوش المفترسة بالعقل.
والحق إن ما يقوله بعض بأن روحاً خالدة تتغير طبيعتها
بتغير الجسد لهو أمر يعتمد على تفكير خاطئ ؛
لأن الشيء الذي يتغير يتحلل، ومن ثم يفنى.
فأجزاء الروح تغير موضعها وترحل عن مواضعها الأصلية؛
ولهذا السبب وجب عليها أن تكون قادرة على التحلل في كل أنحاء الجسد،
وفى نهاية المطاف تفنى كل هذه الأجزاء مع الجسد دفعة واحدة."[٢١]

---

[٢٠] – نفس المصدر: ك٣– ب٧١٥– ٧٤٠ ص ص ٢٨٧–٢٨٩ .

[٢١] – لوكريتيوس .فى طبيعة الأشياء.: ك٣. ب ٧٤٨– ٧٥٩. ص ص ٢٨٩–٢٩٠.

وينتقد هنا لوكريتيوس كل من فيثاغورث وأفلاطون لقولهما بانتقال النفس البشرية إلى حيوان، فزعم فيثاغورث أثناء ضرب رجل للكلب، بقوله لا تضربه فإني أرى فيه صوت صديق لي، وأفلاطون القائل " إن الذين تعودوا على البطنة وعلى الأفراط وتعدى الحدود وعلى معاقرة الخمر ولم ينهو أنفسهم عنها، سيدخلون في جنس الحمير وغير ذلك من الحيوانات المتوحشة، والذين فضلوا فوق كل شيء ارتكاب الظلم، وأن يكونوا طغاة وناهبين سيدخلون في أجناس الذئاب والصقور."[٢٢]

ويستطرد لوكريتيوس في نفيه للتناسخ قائلًا:

" لكن إذا كانوا يقولون إن أرواح البشر تنتقل دائماً بين الأجساد البشرية ، فإنني – على أي حال – سأسألهم كيف يتسنى لروح خرجت من جسد رجل حكيم أن تصبح حمقاء بولوجها في جسد رجل أحمق؟ ولماذا لا يوجد صبي حكيم؟

ولماذا لا تكون للمُهر – ابن الفرسة الذى تدرب على العدو تدريبًا جيدًا – قوة الجواد البالغ ؟ ولا ريب أنهم سيلجأون إلى القول إن الروح ستكون واهية في الجسد الضعيف، لكن لو كان الأمر كذلك فإن عليك أن تسلم بأن الروح فانية ، حيث إنها بعد أن تتواءم تمامًا مع الجسد الجديد فإنها تفقد حيويتها السابقة وأحاسيسها.

لماذا ترغب الروح في الرحيل عن الجسد بعد أن صار هرماً ؟ هل أنها تخشى المكوث حبيسة داخل جثمان متحلل فتتحلل معه ؟ أم تخشى أن ينهار مسكنها فوقها بعد أن تهدم بفعل الردح الطويل من الزمن ؟ بيد أن الشيء الخالد لا يخشى مثل هذه الأخطار."[٢٣]

---

[٢٢] – أفلاطون. محاورة فيدون.ف٨١.ص٢٠٤.

[٢٣] – لوكريتيوس : فى طبيعة الأشياء.ك٣–ف ٧٦٠–٧٧٥ ص ص ٢٩٠–٢٩١ .

ويقول لوكريتيوس فى أبياته:

" فإن مادة العقل لا يمكنها أن تنشأ بمفردها بدون الجسد،
أو أن توجد خارج الجسد بمنأى عن الأعصاب والدم.
وعلى ذلك ؛ عندما يهلك الجسد، فإن عليك أن تسلم بأن الروح
تهلك أيضاً بعد أن تمزقت إربًا في سائر أنحاء الجسد.
إنه لمن السخف– إذن– الجمع بين ما هو فان وما هو خالد،
والاعتقاد أن بالإمكان أن يعملا معًا في تناغم وأن يشتركا في أداء
أعمال مشتركة ، فهل هناك ما يجب اعتباره أكثر تنافرًا–
أو أكثر تناقضًا أو أكثر تضاربًا–
من الجمع بين ما هو فان وما هو خالد."[٢٤]

والسؤال المطروح : " هل كان في فكر لوكريتيوس تصورًا للخلود؟

يجيب لوكريتيوس:

" إن الموت لا يمثل شيئًا لنا.. ولا يقلقنا على الإطلاق،
حيث إن من المعروف عن مادة الروح أنها فانية؛
وكما أننا لم نشعر بالقلق قبل مولدنا على ما جرى في الزمن الغابر،
وهكذا أيضاً عندما سينتهى وجودنا، عندما يحدث الانفصال بين
الجسد والروح اللذين باتحادهما تتصهر أجزاؤنا في كيان واحد،
والآن هب أنه بعد انفصال مادة العقل وقدرات الروح
عن جسدنا لا يزال بإمكانهما الإحساس.
على أي حال فإن ذلك لا يمثل شيئاً بالنسبة لنا، نحن الذين يلزم

[٢٤] – نفس المصدر: ك٣– ب٧٨٨– ب٨٠٤. ص ص ٢٩٢–٢٩٣.

لوجودنا في الحياة اقتران الجسد بالروح وانصهارهما في كيان واحد."[٢٥]

ويستطرد قائلًا:

" وحتى لو استطاع الزمن أن يجمع ذراتنا بعد الموت
وأن يعيدها مرة أخرى إلى هيئتها نفسها الحالية،
وحتى لو أعاد إلينا نور الحياة مرة أخرى،
فإن ذلك الأمر أيضًا لا يعنينا على الإطلاق حتى لو حدث بالفعل،
ما دامت أن قدراتنا على التذكر تكون قد دُمرت تماماً من قبل.
وحتى في وقتنا الحاضر؛ فإنه لا يعنينا في شيء معرفة
ماذا كنا من قبل، ولا تمسنا الآن أي معاناة بشأن هذا الأمر،
لأن العقل لا يستطيع استدعاء تلك الفترة من الزمن للذاكرة؛
لأن الحياة قد توقفت في تلك الفترة البينية التي فيها كانت كل
تحركات ذراتنا تتجول هنا وهناك وابتعدت بعيداً عن مداركنا...
لأنه لو تصادف وقُدر لإنسان أن يشقى ويتألم في المستقبل ،
لكان عليه هو نفسه الوجود أيضًا في ذلك الوقت الذي
سينزل به البلاء، لكن حيث إن الموت يمنع حدوث هذا الأمر،
ويحول دون وجود الإنسان الذى قد تتجمع لديه تلك النكبات،
فعلينا أن ندرك أنه لا يوجد ما يجب خشيته بعد الموت ...
فالإنسان غير الموجود أصلًا لا يمكنه أن يشقى، فليس هناك
أي فرق بين أن يكون الإنسان قد وُلد في وقت سابق أو لم يولد تماماً،
ما دام الموت الخالد سيقضي على حياته الفانية.
وعندما ترى إنسانًا مستاءً من قدره.

---

[٢٥] – لوكريتيوس .فى طبيعة الأشياء.: ك٣– ب٨٣٠–٨٤٦ .ص ص ٢٩٥–٢٩٦.

إذ إنه بعد الموت إما أنه سيتحلل مع جسده المستلقي في القبر،
وإما يهلك فوق مشاعل المحرقة، أو بفكوك الحيوانات الضارية.
كن واثقًا من أنه لا يقول الحق، وأن خوفًا ما
يقطن في أعماق قلبه ، على الرغم من أنه هو نفسه ينكر
اعتقاده بأنه سيكون قادرًا على الشعور بأي إحساس عقب الموت.[٢٦]

ويرصد لوكريتيوس القول الشائع عند تشييع الموتى بأنهم يقولون :" إنه غدار... سلبك ببؤس كل نعم الحياة الكثيرة ." ويرد قائلًا:

" لكنهم لا يضيفون إلى قولهم هذا؛ أنك لن تستولى عليك
بعد الآن أي رغبة في أي من تلك النعم.
لو أنهم يتدبرون ذلك بعقولهم جيدًا ويعملون وفقاً لهذا القول؛
لحرروا أنفسهم من اضطراب عظيم وخوف يصيبان العقل."[٢٧]

ويتساءل لوكريتيوس قائلًا:

" ماذا أصابك أيها البشر الفاني إلى الحد الذى معه تستسلم
لمثل هذه الأحزان المريرة؟ لماذا تئن وتذرف الدمع عند ذكر الموت؟
فلو أنك كنت راضياً عن حياتك السابقة التي عشتها إلى الآن،
ولو أن كل النعم التي اجتمعت لديك لم تتسرب منك– وكأنها كالماء
في وعاء به ثقوب– فتفقدها وأنت ساخط،
لفضلت إذن أيها الأحمق أن تنسحب كضيف قد شبع
من الحياة، وتحصل بعقلك الراجح على راحة بلا منغصات؟
لكن لو أن كل ما استمتعت به قد ولى وزال،

---

[٢٦] – نفس المصدر: ك٣– ب ٨٥٥– ب ٨٧٥. ص ص ٢٩٧–٢٩٨

[٢٧] – نفس المصدر: ك ٣. ب٩٠٠ ص ٣٠٠.

ولو أنك اعتبرت أن حياتك بغيضة ، فلماذا تسعى إلى إطالة أمدها؟[٢٨]

وعن الخوف من الموت وتدمير سعادة الإنسان. يقول لوكريتيوس:

" غالبًا ما يبلغ الخوف من الموت إلى حد أن
تسيطر– على البشر كراهية الحياة ورؤية نورها،
ولدرجة أنهم يقدمون على الانتحار بفؤاد قانط،
متناسين أن ذلك الخوف هو مصدر كل الهموم،
فهو يدفع الواحد على انتهاك الحرمات، ويحث الآخر على
تحطيم أواصر الصداقة."[٢٩]

إن رفض لوكريتيوس للانتحار يشير إلى تحكم الإرادة في القدر، ويعنى ذلك أنه يلغي نظرية القدر تمامًا ويعول على الإرادة الإنسانية في اختيار الاستسلام للموت عندما يأتي، أما الانتحار، فتحذيره من الانتحار يعني الاستسلام إلى القوة المجهولة التي تحدد مسألة الموت وهلاك الروح والبدن معًا. فما هي تلك القوى المجهولة؟ وإذا كان الموت هو عبارة عن فساد تناغم الذرات فلا وجود إذًا لما يسمى بالانتحار الإرادي؟!

رابعًا: حتمية فناء العالم وإنكار الخلود

انتقل لوكريتيوس بعد رفضه لكل من القدر وما سمي بخلود العقل وخلود الروح إلى التأكيد على فناء العالم ككل، دون تدخل من القدر أو الآلهة لمنع هذا الدمار الشامل، كما أوضح إنكاره للخلود بصفة عامة، مع بيانه عجز العقل البشري عن تقبل هذه الحالة من الفناء الكامل للعالم لأنه مقيد بالفكر الديني وما بثه رجال الدين من إلوهية

[٢٨] – لوكريتيوس .فى طبيعة الأشياء.: ك٣.ب ٩٣٠ .ص ص ٣٠٢– ٣٠٣.

[٢٩] – نفس المصدر: ك٣.ب ٨٠–٨٥ ص ص ٢٤٩–٢٥٠.

الأرض والسماء والبحار والنجوم، أو معظم الظواهر الطبيعية التي لا يعقل أنها فانية مثله.

وإذا كان لوكريتيوس قد نادى بالفناء الشامل للعالم فهو يختلف كلية عن مبدأ الاحتراق والفناء الشامل عند هراقليطس والرواقيين، لأن فناء العالم عند الرواقيين يعد فناءً للعناصر الأربعة، أو العناصر التي أوجدها الإله، بخلاف المبدأ (أي مبدأ العالم) وهو الإله أو العقل المدبر للعالم والذي يعتني به ويتحكم فيه بقدره، وبالطبع فإن العقل البشري عند الرواقيين جزء من العقل الإلهي، فجاء نقد لوكريتيوس صراحة للرواقيين وتقييدهم للعقل البشري بما يسمي بالقدر والعناية الإلهية.[٣٠]

ويقول لوكريتيوس عن الدمار الذى سيلحق بالطبيعة الثلاثية (الماء- اليابس – السماء) والعالم ككل:

" والغريب على العقل بأن الدمار سيلحق بالسماء والأرض.

فلعلك ترى بعينيك أن الزلازل

العنيفة تحول في وقت ضئيل كل ما على الأرض إلى ركام.

وليت القدر الهادي يجنبنا هذا المصير!

وليت المنطق يقنعك، على نحو أفضل، أن تجرب الحدث ذاته.[٣١]

ويستهجن لوكريتيوس هنا القدر الذي يشبه الآلهة لا دخل له بالبشر ، فجاء وصفه للقدر بالهادئ ويقصد بهدوء القدر هنا عدم تأثيره فى مجريات أمور البشر.

---

٣٠ – G.Campbell , Lucretius on Creation and Evolution: A Commentary on De Rerum Natura, Book 5, Oxford.2003.p15

٣١ – لوكريتيوس : فى طبيعة الأشياء. ك٥.ب٩٨-١٠٨. ص ص٤١٢- ٤١٣.

وهنا أيضًا ينتقد لوكريتيوس الرواقيين في ربطهم بين القدر وتقوى الإنسان وأخلاقه، ودعوتهم للعيش مع الآلهة، وأن اللاأخلاقي هو الذى تنعدم عنده التقوى والإيمان بقدر الإله وعنايته.[٣٢]

ويستطرد لوكريتيوس حديثه عن فناء العالم بقوله:

" إن كل الأشياء يمكنها أن تنهار بفعل تصادمات ذات جلبة مروعة.
وسوف أمدك بكلمات ذات صبغة علمية؛ وذلك خشية أن تعتقد بالصدفة، وقد قيدك.
الفكر الديني، أن الأرض والسماء والبحر والنجوم والقمر،
كلها من جسد إلهي، وأنه ينبغي لها أن تبقى إلى الأبد،
كل هؤلاء الذين بفكرهم يهزون حصون العالم.
ويودون أن يطفئوا شمس السماء المضيئة.
عند إفسادهم الأشياء الخالدة بحديثهم البشري.
فتلك الأمور بعيدة كل البعد عن القدرة الإلهية.
بل إنه يجب الاعتقاد أنها بالأحرى تخدمنا كنماذج
للأشياء التي تفتقر للحركة والحياة وتخلو من المشاعر."[٣٣]

ويقول أيضًا:

" إن هذا الكم من الموجودات بالكون يبدو
بأنه مركب من تلك العناصر الأربعة: تراب الأرض، الماء،
نسمات الهواء الخفيفة، والنار المحرقة،
فكل الموجودات إذن تتكون من جسد له ميلاد وقابل للفناء،
ومن الضروري أيضًا الاعتقاد أن طبيعة العالم كله تسير على هذا المنوال.

---

٣٢ – Sedley, D. N., Lucretius and the Transformation of Greek Wisdom, Cambridge.1998.p.63

٣٣ – لوكريتيوس : فى طبيعة الأشياء. ك٥. ب١٠٩. ١٢٥صص٤١٣– ٤١٤.

إن الموجودات التي نرى أن جسدها
مركب من أجزاء وأعضائها لها ميلاد وتنتهى بالفناء،
فإن هذه الموجودات ذاتها تخضع بالتأكيد لقانون
الميلاد والفناء. وعلى ذلك عندما نرى أن الأجزاء الكبرى
التي يتكون منها العالم وهي تولد من جديد بعد أن تلاشت.
فإنه يحق لي أن أقول إن السماء أيضًا والأرض كذلك
كانت لهما لحظة بداية ، وسيؤول مصيرهما إلى الفناء.[٣٤]

وقوله أيضًا:

" لدرجة أنك لا تعتقد بالصدفة أن قوة تلك الأجسام غير قابلة للتلف.
وكذلك ألم تر أن الأحجار أيضاً يقهرها الزمن،
وأن الأبراج الشامخة تنهار والصخور تتفتت،
وأن معابد الآلهة وتماثيلها تبلى وتتصدع،
وأن الآلهة المقدسة ليس بإمكانها أن تؤخر حدود
القدر، أو تناضل ضد قوانين الطبيعة (قانون الذرات)؟[٣٥]
وعندما تصاب الأشياء بالكثير من الأوبئة والأخطار،
فهي تحتاج بعد ذلك لأن تُصاب بشيء أكثر ضراوة
كي يصيبها هلاك واسع النطاق ودمار عظيم.
وبهذا المنطق الواضح نبدو نحن كبشر فان،
فنحن نمرض بالأمراض نفسها التي مرض بها

---

[٣٤] – نفس المصدر: ك ٥. ب ٢٣٥–٢٤٥ ص ص ٤٢١–٤٢٢.

[٣٥] – لوكريتيوس .فى طبيعة الأشياء.: ك٥– ب ٣٠٥–٣١٠ ص٤٢٥.

من قبل الناس الذين أزالتهم الطبيعة من الوجود.[٣٦]

وبعد هذا العرض الذي قدمه لوكريتيوس لضرورة فناء العالم ككل، فنرى أنه فناء طبيعي يرجع إلى طبيعة المادة الأولى التي تشكل منها العالم، ألا وهي الذرات التي بطبيعتها تتفتت من خلال الفراغ والتصادمات بين بعضها والبعض الآخر، ليدلل لوكريتيوس على رفضه التام لخلود أي شيء في هذا العالم المادي، الذى لا دخل فيه للآلهة.

ويقول لوكريتيوس:

" إن الأشياء كي تظل خالدة لابد أن تتصف بما يلى:
أولاً: أن تصد الصدمات، لكونها مصنوعة من مادة صماء،
وأنها لا تسمح بأن ينفذ إلى داخلها أي شيء له القدرة على
شطر أجزائها المتماسكة من الداخل، مثل ذرات المادة.
ثانيًا: أن يكون بإمكانها أن تصمد على مر العصور،
وذلك لأنها لا تتعرض إلى صدمات، مثل الفراغ،
الذى يظل بلا مساس، ولا يتأثر بأي صدمة.
ثالثًا: أن لا توجد مساحة مكانية حولها،
بحيث يمكن من خلالها أن تتفرق مادتها وتتلاشى،
مثلما أن البنيان الكامل للكون خالد، إذ لا يوجد أي فراغ
حوله فتطير من خلاله العناصر كل على حدة ، ولا توجد خارجه أجسام
بإمكانها أن تسقط عليه وبذلك يتحطم بضربة قاضية إلى أجزاء متفرقة.
لكن طبيعة العالم ليست ذات جسد مصمت،
حيث إن الفراغ متغلغل في كل الأشياء المركبة.

---

[٣٦] – نفس المصدر: ك٥– ب٣٤٣.ص٤٢٨–٤٢٩

كما أن العالم ليس مثل الفراغ، فهو لا يفتقر إلى الأجسام
التي بإمكانها، بعد أن تتجمع بالصدفة في الفراغ اللانهائي،
أن تسحق هذه المادة الخام للأشياء بإعصار عنيف،
أو تجلب أي كارثة خطيرة أخرى،
ثم إن العالم لا يفتقر إلى مساحة مكانية عميقة
حيث يمكن لحصون العالم أن تتبعثر في داخلها ،
وحيث يمكنها الفناء بعد أن تصطدم بأي قوة أخرى...
وعلى ذلك فإن بوابة الموت لم تُغلق في وجه
السماء والشمس والأرض والبحار ذات الأمواج العالية،
بل إنها مفتوحة وتنتظرها بفمها الوحشي الواسع... [٣٧]

وهنا لم يخرج لوكريتيوس عن فكر الذريين القدامى، فقد مثلت الضرورة الطبيعية الفكرة الأساسية في فكر اتباع المدرسة الذرية " لوكيبوس– ديموقريطوس" فكل شيء خاضع لطبيعة تكوينه المادي، وذلك للتخلص نهائيًا من كافة القوى الخارجية الغامضة الأسطورية– المتمثلة في الأساطير والدين.[٣٨]

وأيضًا لم يخرج لوكريتيوس عن قول أبيقور: " لابد من الاعتقاد أن التوصل إلى المعرفة الدقيقة لعلل الأشياء ذات الأهمية الفائقة هي غاية العلم الطبيعي، وأن السعادة تعتمد على المعرفة بالظواهر السماوية والجوية، وما دامت هناك حاجة إلى ضمان الفوز بالسكينة والسعادة فلابد أن نضع في اعتبارنا أن هناك شيء يعد أكثر قدرة من القلق الذى يصيب النفوس البشرية، ألا وهو الاعتقاد أن الأجرام السماوية

[٣٧] – نفس المصدر: ك٥–ب ٣٥٢– ٣٧٤ص٤٢٩– ٤٣٠.

[٣٨] – محمود أمين العالم : فلسفة المصادفة. دار المعارف. القاهرة. ١٩٧٠.ص٥٣.

كائنات مباركة غير قابلة للفناء وأنها تحظى في الوقت نفسه بأفعال وأسباب معارضة للبشر.[٣٩]

ونتساءل: إذا سلمنا مع لوكريتيوس بمادية العالم ونظامه الذاتي فمن أين تأتي قوى الفساد التي تهدد القانون الطبيعي؟

فلو قال لوكريتيوس أن الفساد كامن في النظام، لكان ذلك يدل على انفصام في الطبيعة، فهناك طبيعة منظمة وأخرى فاسدة؟

ولو كان النظام بقوة خارجية هي التي جعلته منظماً وليست الصدفة كما ذكر فمن أين أتت هذه القوة، وما طبيعتها أو ماهيتها؟

ولو قال إنها هكذا، أي أن طبيعة الذرات لها عمر افتراضي غير معروف ولكنه سوف يؤول للفساد كما تولد من جديد ويوجد معها السماء والأرض والبشر.

نتساءل:

من ذا الذي وضع هذه الخاصية فيها وجعل بعض الكائنات من جنس واحد تفنى وأخرى تظل أكثر عمرًا؟ فلو كانت طبيعة الأشياء لكان موعد فناء الجنس الواحد موقوف على طبيعته النوعية؟

ولا ريب في أن لوكريتيوس لم يستطع الإجابة عن التساؤلات أو الاستفسارات المنكرة لمادية العالم من قبل الاتجاه الروحي ولا سيما الرواقيين والمؤلهة.

خامسًا : حرية الإرادة الإنسانية وانتزاعها من القدر.

واجهت المدرسة الذرية القديمة عند اليونان وخاصة ديموقريطوس تساؤلات عدة عن حرية الإرادة الإنسانية وعلاقتها بالذرات التي تتسم حركتها وطبيعة وجودها بالحتمية

---

[٣٩] – ديوجين لائرتيوس: حياة مشاهير الفلاسفة. المجلد الثالث. ترجمة د إمام عبد الفتاح إمام. مراجعة د محمد حمدى إبراهيم.المركز القومى للترجمة. القاهرة.٢٠١٤. فـ٧٨–فـ٧٩ صص ٢٨٠–٢٨١.

البحتة التي لا مجال فيها للمصادفة، فأجاب ديموقريطوس بالفعل على هذه المشكلة إجابة تتسم بجرأة حتمية مطلقة:" إن أعمال الرجل ليست استثناء من القانون العالمي، ولكن الإرادة الحرة ليست سوى وهم." (٤٠)

أما أبيقور فقد سمح بالانحراف الذري حتى يؤكد على حرية الإرادة الإنسانية، الأمر الذى جعله يسمح بالقليل من المصادفة، تلك المصادفة التي أكدت تمسكه برفض القدر بل وتحديه من أجل سعادة الإنسان وحريته ؛ فقد أكد أبيقور على أن سلوك الإنسان هو مصلحته الأساسية، ولا فائدة كما يظن البعض في قولهم للرجل ما يجب عليه أن يفعله ، ما لم يكن حراً في القيام بذلك. حتى طغيان الدين أفضل من طغيان القدر. لأن القدر يتصف بالحتمية المطلقة التي لا فكاك منها.

وأيضًا سمح أبيقور بتقبل الأساطير المتعلقة بالآلهة التي تبعث في الإنسان الحب والسعادة والأمل في غد متغير، وليس غد محكم بالقدر الحتمي لقوله "إن الحكيم يسخر من القدر، الذي يجعل من بعض الناس سيدًا على البعض الآخر، أو متحكماً في مصائر كل الأشياء ولعله من الأفضل حقًا أن نصدق بالأساطير المتعلقة بالآلهة على أن نخضع للقدر؛ ذلك أن الأسطورة لا تجعلنا نفقد الأمل في إمكانية اسعتطاف الآلهة بإجلالنا لها، في حين أن القدر يتصف بالحتمية المطلقة التي لا يمكن ردها .

وأيضا قوله: " إن الرجل الحكيم يضحك ملئ شدقيه ويسخر من القدر الذي يعده البعض سيدًا على جميع الموجودات، ويؤكد بالأحرى أن هناك طائفة من الأشياء تحدث بالضرورة، وأن هناك طائفة أخرى منها تحدث بالصدفة، في حين أن طائفة ثالثة منها تحدث بسبب أفعالنا نحن، وذلك لأنه يرى أن الضرورة مجردة من

٤٠ – C.J.De. Vogel, Greek philosophy. A collection of texts, texts with notes and Explanation, vol.1, printed in the nether lands. Leiden, 1959. p. 299

المسئولية، وأن الصدفة أو الحظ متقلب ومتغير، وأن أفعالنا حرة لا شيء يتحكم فيها، وأن من الطبيعي أن تكون هذه الأفعال هي التي تستوجب المدح أو القدح.[٤١]
أما لوكريتيوس فقد أكد وشدد على ضرورة حدوث انحراف الذرات لأمرين اثنين:

أولهما: تحطم قيود القدر والتتابع الدائم بين السبب والنتيجة.

وثانيهما: التأكيد على حرية الإرادة الإنسانية.

ويقول لوكريتيوس:

" إذا لم يحدث تغيير الاتجاه للذرات (الانحراف الذري)
فما مصدر الإرادة الحرة التي توجد في المخلوقات فوق سطح الأرض؟
وما مصدر هذه الإرادة الحرة المنتزعة من الأقدار،
التي بواسطتها نسير على طول
الطريق الذي نُقاد فوقه فرادًا بواسطة الشهوة."[٤٢]

وعليه فإن وجود الإرادة الحرة فينا، دليل واضح على هذه القدرة التي تتمتع بها الذرات في تعديل اتجاه حركتها. فالإرادة هي القدرة المنتزعة من القدر التي نتمتع بها على تحريك أبداننا؛ بل إن إرادتنا حينما تحركنا قوة غريبة عنا، تبقى قادرة على محاربة هذه القوة ومقاومتها. إننا نعدل بإرادتنا اتجاه حركتنا، وفقا لما تمليه علينا عقولنا ،لهذا ينبغي لنا أن نسلم للعناصر بقدرتها على التصرف بحركتها الذاتية، وينبغي لنا أن نسلم لها بنوع من التلقائية، هي مصدر قوة الإرادة فينا، وذلك لأنه ما من شيء يتأتى

---

[٤١] – أبيقور: رسالة إلى مينيسى. ف ١٣٤ .ص٢٠٧.

[٤٢] – لوكريتيوس :فى طبيعة الأشياء.ك٢.ب٢٥٠–ب٢٥٥ص١٨٣.

من لا شيء؛ ولأن التلقائية إذا لم تكن موجودة في مبادئ الأشياء، لم تكن موجودة في عقولنا على الإطلاق. [٤٣]

ويقول لوكريتيوس:

" على الرغم من أن الكثير من الأشخاص
يُدفعون بقوة خارجية وأحيانًا يُجبرون ضد إرادتهم على أن
يندفعوا إلى الأمام رغم عنهم ، فإن هناك داخل صدر الإنسان لا يزال
شيء ما يستطيع أن يقاتل ضد هذه القوة ويقاومها.
فإلى جانب الوزن والصدمة لابد أن يكون هناك سبب ثالث للحركة،
إنه هو مصدر هذه القوة الموجودة داخلنا، هذا بما أننا نرى أن
لا شيء يمكن أن يأتي من عدم؛ لأن وزن ذرة ما يمنع
حركاتها من أن تُحدد بقدر كامل بواسطة ذرات أخرى،
لكن العقل نفسه ليست لديه في الحقيقة ضرورة داخلية
لتقرر كل تصرف له وتجبره على أن يعانى في سلبية عاجزة."[٤٤]

فعلى الرغم من ذلك فإن هناك داخل الإنسان قوى تقاوم ذلك الجبر الذي يأتي من الخارج، والمسألة هنا متوقفة على إرادة الإنسان وقوته وقدرته على المقاومة، أما بالنسبة للطبيعة فإن حجم الذرات وطبيعتها هي التي تتحكم في سيرها وحركتها، وذلك على العكس من الإنسان الذى يتميز عن ثائر الأشياء بالعقل الذى تكمن فيه الإرادة.

---

[٤٣] – شارل فرنر : الفلسفة اليونانية .ترجمة تيسير شيخ الأرض .ط١ .دار الأنوار. بيروت.١٩٦٨.ص٢٠١

James Warren. Lucretius, Symmetry Arguments, and Fearing Death. http://www.jstor.org/stable/4182682.27/10/2008

[٤٤] – لوكريتيوس :فى طبيعة الأشياء.ك٢.ب٢٧٧– ٢٨٠–ب٢٩٠ص ص١٨٤–١٨٥.

وعن إرادة العقل وقدرته في سير الانسان وحركته يقول لوكريتيوس :

" يخطأ من يظن أن القدر قد وهبنا القدرة على تحريك
أطرافنا في خطوات واسعة، أقول إن أطياف الحركة تقترب أولاً من عقولنا،
ثم تصطدم بعقولنا، ثم تأتي بعد
ذلك الرغبة، فلا أحد يبدأ في عمل شيء
قبل أن يتبين العقل ماذا يريد أن يفعل.. وطبقاً للشيء
الذى يتبينه العقل، تكون الصورة الدقيقة المطابقة لذلك الشيء؛
ولهذا عندما يحفز العقل نفسه إلى الدرجة التي يرغب فيها
في الحركة، ومن ثم التقدم، فإنه على الفور يعمل وفق جوهر
الروح السجينة في الجسم كله وعبر أعضائه
وأطرافه، وهذا أمرُ من السهل حدوثه، نظراً لأن
الروح تعمل تماماً وفقاً لما يتطلبه الجسد،
وهكذا فإن كتلة الجسم كلها تندفع تدريجيًا وتتحرك نحو الأمام أو الخلف وفق الإرادة،
يُضاف إلى ذلك أن البدن، في ذلك الوقت، يوسع مسامه،
فيدخل الهواء الذي يتحرك– كما ينبغي دائمًا وعلى نحو أكيد –
خلال المسام المفتوحة، وينفذ بغزارة إلى الممرات الصغيرة
في الجلد، وهكذا يتناثر الهواء في ثنايا كل الأجزاء الدقيقة من الجسم..
وهكذا، ولهذا السبب يصبح البدن مُعدًا للحركة إلى الأمام
بفعل قوتين مختلفتين، كسفينة تبحر بأشرعة ورياح؛
ومع ذلك فليس في هذه الأمور ما يدعو إلى الدهشة من
أن الذرات المتناهية في الصغر بمقدورها أن تسيطر على

جسم بالغ الكبر، وتوجه ثقل جسمنا كله."[٤٥]

وفي تفسيره للنوم واليقظة ورفضه لتدخل القدر يقول إن النوم يبعث على راحة الجسم، ويزيل هموم العقل من الصدر:

" يأتي النوم حين تنصرف قوة الروح وتتشتت عبر
أطراف الجسم؛ فبعد أن تُقذف الروح، فإنها ترحل جزئيًا خارج
الجسم، ولكن لأن الروح تُفيض على نحو شديد جدًا، فإنها تتراجع
جزئياً إلى داخل الجسم؛ وحينئذ فقط يُطلق سراح الأطراف
وتنساب في استرخاء، وما لا شك فيه أن هذا الإحساس
بالوعي موجود فينا بفعل وجود الروح، ذلك الإحساس الذى حين
يمنعه النوم من الوجود، حينئذ علينا أن نفترض أن الروح قد اضطربت
وطُردت خارج الجسم.... ولكن ليس كل الروح ؛ فلو خرجت
الروح كلها، لرقد الجسم مُشبعاً ببرودة الموت الأبدية... [٤٦]

وعليه فإننا يمكن أن نفترض تلك اللحظة التي يتوقف فيها الإنسان بمحض إرادته عن التنفس أو الوقوع في موضع لا يمكنه من التنفس بإرادته فتحدث الوفاة، فالعلاقة بين الحياة والموت هي علاقة سببية محضة لا دخل للقدر فيها.

سادسًا :الحياة السعيدة عند كل من عند ديموقريطوس وأبيقور ولوكريتيوس.

السعادة هي المنفعة المطلقة الوحيدة، والألم هو الذى يرفض أي متعة، باستثناء عواقبها المؤلمة، وعدم اختيار الألم، إلا كوسيلة لمزيد من المتعة. الرجل الحكيم يختلف عن الرجل العادي في هذا، أنه في حين أن كلاهما يسعى إلى المتعة، يعرف

[٤٥] – نفس المصدر :ك٤. ب ٨٧٧– ب٩٠٠ . ص ص ٣٧٥–٣٧٦.

[٤٦] – نفس المصدر :ك٤– ب٩١٥– ب٩٢٤ ص ٣٧٧.

الأول كيف يتخلى عن بعض المتع التي تسبب الألم فيما بعد؛ في حين يسعى الرجل العادي للتمتع على الفور ودون تمييز.

وعليه فالمتعة هي مسألة حساب وتأمل ، ويجب تنظيمها بحياة معتدلة في انسجام مع الطبيعة. عندما نقول إن المتعة هي غاية الحياة ،

فمن الواضح أن الشخص الإبيقوري لا يعني متعته الحسية، بل حرية الجسم من الألم والروح من القلق. بل ينشد حقه في الاستمتاع بالحياة باللجوء إلى العقل.[٤٧]

ويعني ذلك أن الإنسان الفرد هو الذى يختار نعيمه وشقائه بإرادته، وليس انصياعًا للقدر أو استسلام للصدفة، بل هي جميعها محض اختيار من العقل، فالإنسان الجاهل الذى لا يحكم عقله يتخير متع البدن أو السعادة في صورتها المادية المباشرة، أما العاقل فهو يعرف جيدًا أن اللذائذ المادية مصيرها إلى الزوال وتتحكم فيها القدرة (الممارسة والمآل) وعليه، فاللذة العقلية المتمثلة في التأمل والبحث عن الحقيقة هي لذات خالدة بطبيعتها، ومن ثم يقع اختيار الحكيم عليها ويفضلها على دونه.

ولقد ذهب ديموقريطوس إلى أن غاية الفعل أن تظل النفس في هدوء وسكينة ، وكذا في رسوخ وثبات حتى لا يصيبها الاضطراب بسبب أي خوف أو خزعبلات ويسمى هذه الحالة باسم الرفاهة. [٤٨]

وهو القائل :" إنني أقدر معرفتي بأسباب الأشياء أكثر من امتلاك دولة الفرس بأكملها، مؤكداً على أن السعادة لا تكون في مجرد اللذة وإنما تكون في هدوء النفس وسلامتها من القلق والمخاوف.[٤٩]

---

٤٧ – Alex C. Michalos, The Good Life: Eighth Century to Fourth Century BCE, University of Northern British Columbia,2013.p55

٤٨ – ديوجين لائرتيوس . حياة مشاهير الفلاسفة .م٣. ف ٤٥. ص ١٤٦.

٤٩ – د أميرة حلمى مطر. الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها. دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.القاهرة.١٩٩٨.ص١١٢.

أما أبيقور فقد أخذ على عاتقه مهمة تحرير عقول الناس من المعتقدات الخاطئة عن الآلهة وما يسببه الخوف من عقابها من آلام للبشر حيث يقول: " من الواضح أن الآلهة موجودة وأنها خالدة وسعيدة ولكنها ليست بالصورة التي يتخيلها عنها العامة."
وعليه فقد مضى أبيقور في تأكيد رأيه في أنه لا يوجد هناك قدر ولا قوة تضمر للإنسان شرًا أو خيرًا، فالعالم نفسه قد وُجد من تلاقي ذرات لا نهائية العدد تجوب خلاءً لا نهائيًا منذ الأزل.[٥٠]
حاول أبيقور أن يقيم خطًا فاصلًا بين العالم والآلهة حتى ينتفى القول بوجود أية صلة بينهم وبين الوجود الإنساني أو المادي بوجه عام، واكتفى في هذا الصدد بتوجيه النظر إلى طبيعة هؤلاء الآلهة أو الخالقين المزعومين على حد قوله ، كما أنه رفض التسليم بوجود أي تأثير لها على العالم أو على الوجود الإنساني "عناية– قدر" ومن ثم فلا وجود للسحر أو العرافة أو المعجزات أو الخوف أو القدر.[٥١]
حارب أبيقور المخاوف التي تنشأ عن خشية الموت وغضب الآلهة فيما تقدره على البشر لعقابهم، وإفساد سعادتهم وراحة بالهم وشعورهم بالطمأنينة، بدراسة الطبيعيات التي تحرر الإنسان من الخرافات والأوهام، فرد العالم إلى الذرات حتى تتلاشى صورة الآلهة التي تثير إزعاج الناس، إنها عندئذ لا تتعرض لانفعالات الرضا والغضب ونحوهما، والإيمان بصحة هذا التفسير الآلي للكون يقضى على خوف الإنسان مما يعقب موته، أما الخوف من الموت نفسه فخطأ في منطق التفكير؛ إنك لن تلاقى

٥٠ – نفس المرجع.صص ٣٦٦–٣٦٧.

٥١ – د محمد على أبوريان: تاريخ الفكر الفلسفى.ج٢. أرسطو والمدارس المتأخرة. دار المعرفة الجامعية.١٩٧٢.ص ٢٦٦.

الموت أبدًا، لأن الموت إذا وقع انعدم وجود الميت، وبالتالي زال حسه وإدراكه، فإن لم يقع كان من الضلال أن تخاف من شيء لم يحدث بعد. [٥٢]

أكد أبيقور على أن صحة الجسد وطمأنينة النفس هما غاية الحياة السعيدة، موضحاً أن الغاية من أفعالنا كافة هي غياب الألم، وغياب الخوف عنا، حيث إن الكائن الحي آنذاك لن يكون بحاجة إلى أن يجد في البحث عن شيء ينقصه أو إلى أن يسعى للبحث عن شيء آخر يحقق به خير النفس والجسم معًا.....

وعلينا أن نمعن النظر في رغباتنا الطبيعية وأنها تنقسم إلى ثلاث رغبات:

أ- رغبات طبيعية ضرورية . (وهي التي تريح من الألم وتذهبه، مثل تناول الشراب عند الإحساس بالظمأ)

ب- رغبات طبيعية غير ضرورية. (وهي تلك التي تتنوع فيها اللذة وتختلف فحسب دون أن تُزيل الألم مثل ألوان الطعام الفاخر)

ت- رغبات ليست طبيعية وليست ضرورية.(وهي التي يطمح المرء فيها إلى التيجان والعروش وإقامة التماثيل.

وتنقسم الرغبات الطبيعية الضرورية إلى ثلاث:

أ- رغبات ضرورية لتحقيق سعادتنا.

ب- رغبات ضرورية لتخليص الجسد من الألم والاضطراب.

ت- رغبات ضرورية من أجل استمرار الحياة.

وحينما نتألم بسبب غياب وجود اللذة، فإننا عندئذ فقط نشعر بالحاجة إلى تحقيق اللذة، أما عندما لا نحس بالألم فمعنى ذلك أن اللذة لم تعد غائبة وأننا لا نحتاج إلى وجودها، وبناءً على ذلك فإننا نسمى اللذة البداية والنهاية للحياة السعيدة....

---

[٥٢] – د توفيق الطويل. فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها. دار الثقافة للنشر والتوزيع. القاهرة. ١٩٨٥. ص ١٣٢.

... وحينما نقول إن اللذة هدف وغاية، فإننا لا نعنى بذلك اللذات المؤدية إلى الفسق والمجون، أو اللذات المتعلقة بالمتع والشهوات ؛ ولكننا نعنى باللذة غياب الألم عن الجسم وغياب القلق عن النفس.[٥٣]

... الحياة الهانئة لا تتمثل في الشراب المتواصل ولا في الخلاعة والمجون، ولا في عشق النساء وإتيان الغلمان شهوة، ولا في أطايب الطعام، وإنما تتمثل في العقل اليقظ المتوثب الراجح الذى يبحث دومًا عن أسباب كل اختيار وكل رفض، والذي ينبذ أو يستبعد الآراء والمعتقدات التي تتمخض عنها معظم الاضطرابات التي تحدث للنفس.[٥٤]

ويقول أبيقور: " لن يتمكن المرء من الحصول على طمأنينة النفس الحقيقية والشعور بالسعادة، ما لم يدرك حقيقة الظواهر السماوية." [٥٥]

وانطلاقًا من رؤيته هذه كشرط لتحقيق السعادة وشعور الإنسان بها فقد فسر بعض الظواهر السماوية والجوية على النحو الآتي:

١- يرجع اختلاف طول الليل والنهار إلى سرعة حركة الشمس، واختلاف طول المسافات التي تقطعها الشمس عبر فضاءات مختلفة.

٢- ترجع العلامات الموجودة في السماء والتي يتمكن المرء من خلالها بتنبؤات الطقس، إلى محض اتفاق بين فصول السنة الأربعة، كما هي الحال في العلامات أو الإشارات الموجودة بين الحيوانات التي تعيش أمامنا على الأرض.

٣- تتراكم السحب وتتكون إما بفعل تكاثف الهواء تحت ضغط الرياح، وإما عن طريق تشابك الذرات مع بعضها البعض، أو تكاثف البخار الصادر عن الأرض والمياه.

---

٥٣ - ديوجين لائرتيوس: ف١٢٨- ف ١٣١. ص ص ٣١٤-٣١٦.

٥٤ - إبيقور: رسالة إلى مينيسى.فقرة ١٣١.ص٢٠٦.

٥٥ - ديوجين لائرتيوس: ف٩٦.ص٢٩٢.

٤- الأمطار تحدث بسبب نفثات من الرطوبة المتصاعدة من مناطق مناسبة عبر الهواء، ويرجع طوفان المطر الأشد عنفاً إلى تراكمات معينة مناسبة لمثل هذه الرطوبة.

٥- الرعد يرجع إلى دوران الرياح داخل الأماكن المجوفة في السحب، أو ربما ترجع إلى تمزق السحب وتهتكها، أو قد تعود إلى احتكاك السحب بعضها بالبعض الآخر.

٦- البرق يحدث بسبب احتكاك السحب واصطدامها، فإن تجمع الذرات وتشكلها هو السبب في تولد النار وهو المسئول عن إحداث البرق.[٥٦]

وجاء لوكريتيوس ليؤكد على أن الإنسان قد انتزع إرادته من الأقدار لكي يستطيع بها أن يذهب حيث تقوده متعته ، منحرف بها في حركته تماماً كما تفعل الذرات فى أوقات غير محددة أو أماكن غير محددة.[٥٧]

ويقول لوكريتيوس :

" إن السلوك الشائن والفقر المدقع يبدو أنهما –
قد رحلا عن الحياة الهنية المستقرة،
واستقرا بالفعل أمام بوابات الموت؛
فمنها يرغب الناس في الفرار بعيدًا وينأون
بأنفسهم عنهما، مدفوعين بخوف لا أساس له،
لذا فإن طمعهم يجعلهم يكدسون الممتلكات ويضاعفون الثروات
بإراقة دماء المواطنين، فيرتكبون المذابح تلو المذابح،
بل إن هؤلاء القساة يبتهجون عند مصيبة موت الأخ،

---

[٥٦] – ديوجين لائرتيوس : فقرات: ٩٦-٩٧-٩٨-٩٩-١٠٠-١٠١ ص٢٩٤: ص ٢٩٦.

[٥٧] – ريكس وورنر: فلاسفة الإغريق. ترجمة عبد الحميد سليم. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ١٩٨٥. ص٢٠٢.

وبمنطق مشابه فإن الحسد يعد نتيجة للخوف ذاته، يعتصر الناس
عند رؤية رجل يمشى أمام أعينهم مختالاً في مجد باهر،
خشية أن يصبح ذا سلطة،
بينما هم أنفسهم يشتكون من أنهم قد سقطوا في الظلمات وفى الوحل.
فالبعض يضحون بحياتهم من أجل إقامة التماثيل لهم والحصول على الألقاب .
وغالبًا ما يبلغ الخوف من الموت إلى حد أن
تسيطر على البشر كراهية الحياة ورؤية نورها."[٥٨]

ويقول لوكريتيوس:

" إن الظواهر الطبيعية التي تحدث في الأرض وفى السماء
والتي يراها البشر، والتي تصيب عقولهم الخائفة بالحيرة في أغلب الأحوال،
فهي التي تدفع نفوسهم الحائرة إلى الخوف من الآلهة،
ومن ثم تلقى بهم إلى الأرض وهم محبطون، وذلك لأن
جهلهم بأسبابها يدفعهم إلى نسب تلك الأمور
إلى قوة الآلهة، ويخضعون الكون لحكمها....
إن البشر عرضة أكثر لأن يضلوا بتفكيرهم الأعمى.
إن لم تُطهر عقلك تماماً من تلك الخرافات ،
التي لا تليق بالآلهة والغريبة على سلامها،
فإنك راكد لا محالة في التعاسة والحزن.

[٥٨] – لوكريتيوس :فى طبيعة الأشياءك٣. ترجمة د على عبد التواب على. ب٦٥– ب٨٠ ص ص ٢٤٨–٢٤٩.

إن التفكير السديد قد يبعد عنا مثل هذه الحياة. [٥٩]

على أية حال كان تحدى القدر ورفضه عند أبيقور وأتباعه مثل لوكريتيوس ، كسبب رئيسي لخوف الإنسان من الموت ومن الآلهة ومن الظواهر الطبيعية والتي تحول دون تحقيق سعادته.

علمًا بأن الرواقية كمدرسة فلسفية ربطت بين القدر والإله وشددت على عدم تخطى القدر وإرادته، وربطت بين الإيمان بالقدر وأخلاق الإنسان ، حيث عدت أن اللاأخلاقي هو تعبير عن عدم التقوى ، نجد شيشرون ينتقد القدر ويمتدح منحي الأبيقوريين بقوله: " ومهما يكن من شيء فإن في تفكير أبيقور اتساقًا منطقيًا، حيث أنه لم يتردد في تحطيم التكهن بالغيب، أما الرواقيون فليس في آرائهم انسجام قط، لأن إله أبيقور الذى لا شأن له بنفسه، ولا بأي إنسان آخر، لا يسعه أن يخلع على الناس القدرة على التنبؤ بالغيب، كما أن إله الرواقيين لا يستطيع أن يمنحهم هذه القدرة، رغم أنه يتولى حكم الدنيا، ويقوم بتدبير القدر والخير لكل إنسان." [٦٠]

ويستطرد متسائلًا: " ثم ما نفع التكهن بالغيب إذا كان القدر كما تزعمون يتحكم في كل شيء؟[٦١]

يقول شيشرون للرواقيين: " لقد أقمتم على رقابكم سيدًا أبديًا يجب أن تخشوه نهارًا وليلًا، في الواقع من لا يضطر أن يخاف إلهاً يستبق الأمور بفكر وروية ، ويلاحظ كل شيء، والذي في فضوله وعمله يظن أن كل شيء هو صنعه وقدره؟ من هنا تنتج

---

[٥٩] – لوكريتيوس . فى طبيعة الأشياء. ك٦. ترجمة د على عبد التواب على. ب٥٠–ب٨٠ ص٥٠٤: ص٥٠٦.

[٦٠] – شيشرون : علم الغيب فى العالم القديم . ترجمه وشرحه وعلق عليه د/ توفيق الطويل . السلسلة الفلسفية والاجتماعية (٢) مكتبة الاعتماد .مصر.القاهرة.١٩٤٦.ص ١٥٢.

[٦١] – نفس المرجع: ص ١٣٩.

في بادئ الأمر حتمية القدر الذى تسمونه "هيرمامني" يعنى حسب رأيكم كل ما يحدث يأتي من الحقيقة الخالدة ومن ارتباط الأسباب، أية قيمة يجب إعطاؤها لفلسفة تعتبر مثلما كانت تعتقد النسوة الساذجات أن كل شيء يحدث وفقًا لقدر محتم..... إن قدركم يغرقنا في خرافات نضطر بسببها أن نكرم الراصدين والعرافين والسحرة والمتنبئين ومفسري العلامات.... لقد نجانا أبيقور من كل هذه المخاوف واقتادنا إلى الحرية والسعادة." (٦٢)

الخاتمة:

يمكننا أن نخلص من آراء لوكريتيوس تجاه السعادة والقدر إلى خمسة نتائج:

أولها: إن مجمل آراؤه لا تخرج عن التوجه العام للمدرسة الإبيقورية حيال السعادة والقدر.

ثانيها: إنه لم يقدم جديدًا يعول عليه في تحديه ورفضه للقدر، فمعظم الانتقادات والتساؤلات الناقدة من قبل الرواقيين والروحيين ما زالت قائمة: نذكر منها إذا كانت المصادفة ليس لها دخل في طبائع الأشياء فمن الذى جعل للأشياء خصائص وربط بين العلة والمعلول؟ ومن الذى جعل للحكيم عقلاً وللجاهل شهوة؟ وإذا كان العالم يسير وفق الأسباب والمسببات في منظومة حتمية فما علة وجود الفساد والانحرافات والاختيارات غير الصائبة التي تُحدث ألمًا عوضًا عن السعادة.

ثالثها: إن السعادة ليس لها معنى ثابتًا في مقولات لوكريتيوس فالحكيم إذا كان يشعر بالسعادة في التأمل والمعرفة، فإنه لا يتألم إذا أكل وشرب ومارس المقتضيات الجسدية والجنسية، واستجاب إلى أحاسيسه وعواطفه ، وعلى العكس فإن الجاهل يحس بالشقاء والألم إذا دفعته للتأمل العقلي أو طلب المعرفة لأنها لا تقع في نطاق اهتمامه.

---

٦٢ – بيار بويانسي: إبيقور. تعريب د بشارة صارجي.سلسة أعلام الفكر العالمي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.بيروت. ١٩٨٠.ص ١٣٣.

رابعها: إن امتداح الرواقيين ولاسيما شيشرون لإنكار الإبيقوريين للقدر لا يعنى إنكارهم للحتمية، فالحتمية عندهم تسير وفق قانون الاحتراق، أما القدر عندهم ليس له أي دخل بإرادة الأفراد أو الحجر على حريتهم، فالمراد سواء عند الإبيقوريين أو الرواقيين هو تخليص الأذهان من الخرافات التي لحقت بقضية القدر وجعلته مسلوبي الإرادة.

خامسها: إن اعتراف لوكريتيوس بوجود الآلهة دون إرادة عليا، لا يعنى أنها علة الأخلاق كما زعم، أو هي السبب الرئيس لوجود الحكمة، واعتقد أن حديثه عن الآلهة لم يؤثر كثيراً إلا عند العوام الذين تحاشى غضبتهم أو سخطهم على وجهته الإلحادية المنكرة لوجود الإله بصفاته التي رسخت في العقل الجمعي فشملت كل شيء بما في ذلك القدر.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأجنبية:

Lucretius, On the Nature of Things, Translation by W.H.D. Rouse, revised by. Martin. F. smith Loeb Classical Library (181), Harvard University, 1922.

ثانيًا: المصادر المترجمة للعربية.

١- أبيقور: الرسائل والحكم .ترجمة جلال الدين سعيد . الدار العربية للكتاب. بيروت د.ت.

٢- ديوجين لائرتيوس: حياة مشاهير الفلاسفة. المجلد الثالث. ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام. مراجعة د. محمد حمدي إبراهيم. المركز القومي للترجمة. القاهرة. ٢٠١٤.

٣- لوكريتيوس. في طبيعة الأشياء. ترجمة د. علي عبد التواب علي، د. صلاح رمضان، د. سيد أحمد صادق. مراجعة وتقديم د. عبد المعطي شعراوي. المركز القومي للترجمة. القاهرة. ٢٠١٨.

ثالثًا: المراجع العربية:

١- د. أميرة حلمي مطر. الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها. دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.القاهرة.١٩٩٨.

٢- أمين سلامة. الأساطير اليونانية والرومانية. دار الفكر العربي. القاهرة. ١٩٨٨.

٣- د. توفيق الطويل. فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها. دار الثقافة للنشر والتوزيع. القاهرة. ١٩٨٥.

٤- د. عبد الرحمن بدوي: خريف الفكر اليوناني. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. ١٩٥٩.

٥- محمود أمين العالم : فلسفة المصادفة. دار المعارف. القاهرة. ١٩٧٠.

٦- د. محمد على أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفى.ج٢. أرسطو والمدارس المتأخرة. دار المعرفة الجامعية.١٩٧٢.

رابعًا: المراجع المترجمة للعربية:

١- آميل برهييه. تاريخ الفلسفة.ج٢. الفلسفة الهللينستية والرومانية. ترجمة د. جورج طرابيشى. دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت. ١٩٨٨.

٢- برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية.ك١. الفلسفة القديمة. ترجمة د. زكى نجيب محمود، مراجعة د. أحمد أمين. لجنة التأليف والترجمة والنشر. وزارة الثقافة. القاهرة. ١٩٦٧.

٣- بيار بويانسي: إبيقور. تعريب د بشارة صارجي. سلسة أعلام الفكر العالمي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. ١٩٨٠.

٤- ريكس وورنر: فلاسفة الإغريق. ترجمة عبد الحميد سليم. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ١٩٨٥.

٥- شارل فرنر : الفلسفة اليونانية .ترجمة تيسير شيخ الأرض .ط١ .دار الأنوار. بيروت.١٩٦٨.

٦- شيشرون : علم الغيب فى العالم القديم . ترجمه وشرحه وعلق عليه د/ توفيق الطويل . السلسلة الفلسفية والاجتماعية (٢) مكتبة الاعتماد. مصر. القاهرة. ١٩٤٦.

٧- فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة.م١ اليونان وروما. ترجمةد/ إمام عبد الفتاح إمام. المشروع القومى للترجمة. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة٢٠٠٢.

٨- د. مصطفى النشار: فلسفة أرسطو والمدارس المتأخرة ، ط٢ ، دار الثقافة العربية ،القاهرة ٢٠٠٦.

خامسًا: المراجع الأجنبية.

1-Alex C. Michalos, The Good Life: Eighth Century to Fourth Century BCE, University of Northern British Columbia,2013.

2-C.J.De. Vogel, Greek philosophy. A collection of texts, texts with notes and Explanation, vol.1, printed in the nether lands. Leiden, 1959.

3-G.Campbell , Lucretius on Creation and Evolution: A Commentary on De Rerum Natura, Book 5, Oxford.2003...

4-James Warren. Lucretius, Symmetry Arguments, and Fearing Death. http://www.jstor.org/stable/4182682.27/10/2008./21/2/2019...

5-M.F.SMITH , Introduction to Lucretius, on The Nature of Things, translated by William Ellery Leroy, Leonard, Rout ledge, 1932..

6-Peter Aronoff, LUCRETIUS AND THE FEARS OF DEATH, Cornell University, 1997.

7-Sedley, D. N., Lucretius and the Transformation of Greek Wisdom, Cambridge.1998.

8-W.Jaeger.The theology of the Early Greek philosophers. Oxford.1968.

9-E. Zeller, Out Lines of the History of Greek Philosophy, Translated by. L.R. Palmer, Harcourt Company New York, 1931.

10- Epictetus, the Discourses as reported by Arrian, the Manual, and Fragments, VoL. 2, Translation by Oldfather, William Abbott .Loeb Classical Library.1928.ch.1-29.